تحويل القبلة
عن بيت المقدس الى الكعبة

تحفة من بدائع السياسة المحمدية

لسعادة شيخ العروبة

الاستاذ أحمد زكي باشا

سيدي العلامة الأكبر الاستاذ أحمد زكي باشا

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . وبعد فأن لى عظيم الشرف إذ أتقدم بهذا الكتاب إلى سعادتكم ، راجيا التفضل ، ببيان مأيهم علينا من مسألة « القبلة » ويبيح لنا هذا الذى نسأل عنه ما قرأناه فى « مجلة المعرفة الغراء » من بيان سعادتكم الشافى ، وردكم الوافى ، عن تعظيم الصخرة المقدسة ، وعن بيت المقدس ، فقد قطعتم بسيف الحق أضاليل المضللين ، ومحوتم بالحجة الصادقة خرافات المخرفين ، وأزلتم بنور البيان ، تلك الظلمات التى أسدلتها أكاذيبهم والتى أثرت أبلغ الأثر فى قلوب ضعاف العقول من المسلمين . وبما أننا لانزال نسمع منكم وعنكم ، ومن أفاضل العلماء وعنهم أن المسجد الأقصى ، هو أولى القبلتين ، وثالث الحرمين فقد جئنا سائلين عما إذا كان المسلمون قد توجهوا فى وقت من الأوقات بصلاتهم إلي قبلة اليهود قبل الكعبة المعظمة فى مكة المشرفة ؟

نرجو التفضل بافادتنا عن ذلك ، فأنت لها ياسيدي من غير مدافع ، وابن بجدتها دون منازع ، ونحن فى انتظار رأيك السديد ، وحجتك الصادقة ، راجين كشف الغمة ، بنور علمك الساطع ، ومحق الضلال والبدع ، بقول الحق الصادق ، أدامكم الله ذخرا للاسلام والمسلمين ، وأبقاكم مرجعا لأهل العلم والفضل أجمعين ؟

القاهره حسن مصطفي الشوربجى

الجواب

- ١ -

نبدأ الكلام بشيء من سياسة النبي الكريم ، وما حدث للأنبياء السابقين . ففي ذلك عبرة لأهل العصر الحاضر

إن الله اصطفى من عباده رجالا كتب لهم سعادة الدنيا والآخرة : أولئك هم رسله إلى خلقه ، وأنبياؤه في أرضه . وقد اختصهم سبحانه وتعالى بإقامة شريعته . وبالهداية إلى عبادته . فكانت لهم قدم صدق في نشر الدعوة وتأدية الرسالة . وكلهم قد أصابه شيء من الارهاق والاضطهاد ، أو ناله بعض ألوان المحنة والعذاب (على ماجاءت به الآيات المحكمات) .

وما كان احتمالهم للأذى من قومهم في مقابلة الخير الذى يبغونه لهم ، إلا ليكون للناس بهم أسوة وعزاء ، فيما لو أصاب أحدهم محنة أو نقمة عند قيامه بالدعوة إلى المعروف والنهى عن المنكر ، أو فيما لو أخذ نفسه بمحاربة الشر الغالب على طبيعة الانسان .

وأنت إذا تدبرت أحسن القصص فى الكتاب الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، رأيت أن الانبياء السابقين كانوا يبدأون الدعوة بالمناصحة عن طريق الملاينة والاقناع . ثم يؤيدون الدعاية بالترغيب فى عاجل الثواب وما يتلوه من حسن المآب . أما إذا غلبت الشقاوة على قومهم ، فقد كان منهم من يلجأون فى دعاوتهم إلى المجاهدة بعد تشديد الوعيد واستمطار اللعنات : ثم ينتهون بسؤال الجبار القهار أن يصب على الكافرين سوط عذاب وأن يذيقهم ما يشاء من ألوان الوبال والبوار .

ولا يكون ذلك إلا عند نفاد الصبر ، وضيق الصدر .

فالرسل قد يتولاهم اليأس و يستشعرون القنوط ، كما يحصل لكل إنسان . لأنهم ، وإن كانوا من طراز ممتاز ، فهم من البشر على كل حال .

ونحن نضرب لك في سبيل التدليل على هذه الحقيقة ، ثلاثة أمثلة مما ورد فى الكتاب المجيد .

المثال الأول — نراه فى سورة البقرة : عند ما أراد الله جل ثناؤه تشجيع رسوله صلى الله عليه وسلم وتشجيع المؤمنين على الثبات والصبر بازاء الذين اختلفوا عليه من المشركين وأهل الكتاب عند ما أنكروا آياته وعادوه : فقد خاطبه وخاطب المسلمين بقوله تعالى : « أم حسبتم

أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم . مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله »

وقد تطابق المفسرون على أن المعنى أنهم « بلغ منهم الضجر ولم يبق لهم صبر حتى قالوا ذلك . وأضاف المفسرون بيانهم بأن معناه طلب النصر وتمنيه واستطالة زمان الشدة . ثم قالوا : وفي هذه الغاية دليل على تناهي الأمر في الشدة وتماديه في العظم، لأن الرسل لا يقادر قدر ثباتهم واصطبارهم وضبطهم لا نفسهم . فاذا لم يبق لهم صبر حتى ضجوا كان ذلك الغاية في الشدة التي لا مطمح وراءها » . أنظر « الكشاف » وغيره

المثال الثاني ـ في سورة يوسف (١٢ : ١١٠) يقول لنا ربنا تقدست أسماؤه « حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا »

ومعلوم أن اليأس لا يكون إلا بعد انعدام الامل (ظنا أو تحقيقا) : ولذلك قال علماء الدين في تفسير هذه الآية الكريمة : « إن انتظار النصر من الله وتاميله قد تطاولت عليهم مدته وتمادت حتى استشعروا القنوط » (أنظر « الكشاف » وغيره) . ولا قنوط إلا بعد فوات الامر المرجو ، أو الظن بمجرد فواته

المثال الثالث ـ نراه في سورة نوح (وهو من أولى العزم) فانه بعد التلطف في الاستدراج ، و بعد التذكير بنعمة الله ، و بعد التأميل بحسن الجزاء ، تحقق من قومه الاصرار على الكفر والتمادي في الضلال . فانتهى به اليأس والقنوط إلى أن طلب من الله محوهم ومحقهم وتطهير الارض منهم : ومصداق ذلك في دعائه عليهم بقوله : « رب لا تذر على الارض من الكافرين ديارا » (نوح ٧١ : ٢٦) :

***

حتى إذا جاء سيد الخلق بدين الحق : أخذ يدعو قومه الى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة ، ويجادلهم بالتي هي أحسن ، لكنه برغم كل ما لاقاه من صنوف الأذى ، كان لا يدعو عليهم بمثل دعاء أخيه نوح ، بل كان يجاريه هو وأخاه عيسى في الاستغفار لهم « لأنهم لا يعلمون »

ولقد امتاز صلى الله عليه وسلم على سائر الانبياء بسياسته الحكيمة في الأبقاء على قومه وفي تسهيل السبيل لاستدراجهم الى عز الدنيا ونعيم الآخرة

و بيان ذلك أنه عند ما تم له الفوز الأكبر والفتح الأكمل ، وأقبل على مكة ظافرا منصورا تحف به ملائكة الرحمة ويرفرف عليه الروح القدس ، كان أعداؤه يظنون به الظنون و يتربصون منه ريب المنون

فانظر ماذا صنع قبل الدخول . إن أبا سفيان ، وهو أكبر زعماء مكة وأشد أعداء النبي خصومة له وسعيا فى النكاية به ، كان قد ورد على النبي بغير عهد ولا أمان : فأراد عمر بن الخطاب قتله ولكن النبي الكريم أبى عليه . ثم هداه الله إلى الإيمان ، فأسلم ونطق بالشهادتين . فأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يسبقه إلى مكة وأن ينشر على أهلها مانسميه نحن اليوم « الأمر العسكري » الذى أملاه من فمه الشريف عليه .

عاد الرجل إلى مكة ، وهنالك صاح بأعلى صوته لاعلان قومه « بالامر العسكرى » بل بالكرامة النبوية :

« من دخل دار أبي سفيان ، فهو آمن ! من أغلق عليه بابه ، فهو آمن ! من دخل المسجد فهو آمن ! »

فبعد التردد الذى توجبه الحيرة وبعد الاضطراب الذى يعقب الانهزام ، رأى أهل مكة أن السلامة فى امتثال العمل بهذا « الأمر العسكري الكريم » لكنهم تذكروا إذايتهم للنبي ، وتذكروا تواطؤهم على اغتياله ، وتذكروا إساءآتهم اليه يوم (الحديبية) فتردد فى ضمائرهم أنه آخذهم بجرائرهم ، جزاءا وفاقا بما كان من جرائمهم . وما لبثوا أن رجعوا إلي أنفسهم ، وراجعوا ما كان له معهم من شهامة وكرامة ، ومن إسجاح وسماح . فكان الخوف يقعدهم ، وكان الرجاء يقيمهم ، على أنه صلي الله عليه وسلم كان فوق ظنهم به وأعلى من أملهم فيه ، فقد بلغه أن سعد بن عبادة قائد إحدى الكتائب ، أخذ يرتجز وهو داخل بجنوده إلى مكة :

اليـــوم يوم الملحمة * اليوم تستحل الحرمة (١)

فكان منه عليه الصلاة والسلام إلا أن أسرع باصدار الأمر إلي على بن أبى طالب بأن يتولى القيادة مكانه ، حتي لا يقع مكروه . فكان فى ذلك اطمئنان لهم . ومع ذلك فقد رأوا من الحيطة أن يحتفوا عن الانظار عملا بذلك « الامر العسكري » وأن يرسلوا وفدا لتحية الرسول الكريم عند دخول مكة ولاستماع كلمة تكون لهم فيها حياة أو عدم . فقال لهم رسول الله صلي الله عليه وسلم : يامعشر قريش ، ماترون أنى فاعل فيكم ؟ قالوا : خيرا . أخ كريم وابن أخ كريم . قال اذهبوا فانتم الطلقاء .

ولقد بلغ من كياسته فى سياسته ، أنه صلى الله عليه وسلم بعد دخوله مكة وصل إلى علمه الشريف أن على بن أبى طالب تعقب رجلين من أكبر أعداء الاسلام ونبي

(١) هذه رواية ابن هشام عن ابن اسحاق . والذى في البخاري « اليوم تستحل الكعبة »

الاسلام، حتى استجارا باحدى السيدات القرشيات ، وهى أم هانيء . فادركهما وصاح . « والله لأقتلنهما » . فاقفلت فى وجهه الباب ، وذهبت إلي سيد الانام . فلما علم بالخبر أمر باجازة ما فعلت وضمن لها حياة من استجار بها ومن أعطته هى الامان . ففاز الرجلان بالسلامة . وهما الحارث بن هشام وزهير بن أمية بن المغيرة

***

أين . أين ضعاف القلوب . عميان البصائر . الذين صغرت نفوسهم وسفلت أخلاقهم بما دب الي عروقهم من دماء غير طيبة . . ؟

أين . أين أنصاف العلماء الذين يبخسون قومهم مفاخرهم التليدة المجيدة . ولا يرون لهم من فضيلة فى هذه الحياة الدنيا ، حتى ولا التى يشهد لهم بها أهل أوروبة ؟

أين . أين الذين أغواهم الشيطان، فصاروا لا يرون للاسلام اثراً فى الحضارة والعمران، وإذا حدثناهم به وأتيناهم بالدليل الساطع يتلوه البرهان الناصع . قالوا هذا محال وبعيد الاحتمال ؟

أين . أين أولئك المتحذلقون المتنطعون الذين يقنعون بقشور العلم ويتقمصون بقشات موائد الافرنج فيخرجون على الاسلام وعلى العروبة بكل منكر ونكير ؟

أين هؤلاء وهؤلاء ليأتونا بمثل هذه المأثرة أو بما يدانيها عن أى قائد من قواد الامم الاخرى ، فى أى عصر من أعصار التاريخ منذ ظهور الانسان الى هذه الساعة التي فيها نعيش ؟

يمينا بالله ! لو صدرت مثل هذه المأثرة فى أية أمة من الامم القديمة لاتخذت صاحبها إلها أو نصف إله . أما المسلمون فقد اكتفوا بما جاء عن ربهم وهو أنه أي النبي بشر مثل كل الناس ولكن الله ميزه بالرسالة الى جميع الناس ، وأنه جعل خاتم الانبياء والمرسلين

وكان من آثار هذا العفو عند المقدرة دخول هؤلاء الاعداء في دين التوحيد : دين الرحمة والعدل والاحسان . فصاروا حماة الاسلام . وكانوا هم الناشرين للوائه من مشرق الشمس الي مغربها . والى ذلك أشار الله في كتابه المبين (١١٠ : ١ - ٢) بقوله تعالى :

« إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا »

بناء على ما قدمنا يصح لنا المجاهرة بأنه عليه الصلاة والسلام كان - وهو يجاهد في تبليغ

رسالته ـ يريد و يتمني و يؤمل أن يؤمن به المشركون وأهل الكتاب، و يشتهي و يؤمل أن يتبعوا دينه القويم ، دين التوحيد الذى جاء به من عند ربه لهداية الناس كافة إلى صراط مستقيم

وما ذلك بمستنكر ولا بمستغرب ممن بعثه الله بنور القرآن ، ومدحه بمكارم الاخلاق فقد بما انصرفت هذه الارادة والامنية ، وتعلق ذلك الرجاء والأمل بدخول أحب الناس اليه (عمه أبي طالب) في حظيرة الاسلام ، حتى قال له ربه فى محكم الكتاب . « إنك لاتهدى من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء » (قصص ـ ٢٨ : ٥٦)

وقد بما بلغ من طموحه الى تثبيت قواعد الاسلام أنه دعا الله أن يحقق أمله فى نصر الاسلام باحد العمرين (ابن الخطاب أو أبى جهل) (١)

وقد بما توجهت نفسه الكريمة الي مثل هذا الامل فى قومه الاقربين وهم قريش حتى خاطبه ربه بقوله في سورة النحل « إن تحرص على هداهم فأن الله لايهدى من يضل » (١٦ : ٣٥)

ذلك لان القلم كان قد جرى بما هو كائن على ماسبق فى علم الله ، طبقا لما تعلقت به مشيئته، لحكمة قد تعجز عنها العقول، وقد لاتدركها الافهام . فقد جاءنا الوحى على لسان أصدق الخلق بقوله تعالى : « لقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدي الله ومنهم من حقت عليه الضلالة » (١٦ : ٣٥)

***

هكذا كانت سيرته فى أهل يثرب عند ماحل بها وأشرقت بنوره ربوعها ، وكان يهود يثرب: بعضهم من الفريق الاول: و بعضهم بل أكثرهم من الفريق الثانى الذى حقت عليه الضلالة والخذلان، لتصميمهم على محاربة الاسلام ولتماديهم على البقاء فى الكفر والعناد .

وذلك مستفاد من الحكمة فى تحويل القبلة عن بيت المقدس إلي الكعبة فى مكة . وهو ماسنعرض لبيانه بالتفصيل الشافى فى الفصل الثاني . فانتظره يافتى العرب فى الجزء الآتي من « المعرفة » إنشاء الله .

عن دار العروبة أحمد زكي باشا

(١) أبو جهل هو عمرو بن هشام بن المغيرة المخزومى القرشى ، أشد الناس عداوة للنبى صلى الله عليه وسلم فى صدر الاسلام ، وأحد سادات قريش وأبطالها ودهاتها فى الجاهلية . أدرك الاسلام ؛ وكان يقال له « أبو الحكم » فدعاه المسلمون « أبا جهل » .